إطـلالة تاريخيـــة

ما هــو المســرح؟:

إن عالم المســرح كفن يصعب معه تحديد شامل أو قاطع لتعريفه، ولكن نستطيع أن نكون له صورة ذهنية عامة تحدد لنا أبعاده وماهيته.

فالمســرح كفن يعتمد على التعبير الإنسانى الصادق، فى معاناتــه وآلامه، وفى صراعاتــه الاجتماعية، والفكرية.. كما إنه تعبير عن صراعات الإنســان مــع الطبيعة وما وراءها فى العالم الغيبى (الميتافيزيقى).

لذلــك فهو يعتمــد فى جوهره على محصلة الإنســان من المعرفــة، والتأمــل، بل أن المســرح الجيــد يتخطى مجرد الترفيه، وتستضئ فيه الحياة الإنسانية بالنور الروحى بما له من فعل فى الأزمات الشخصية واللحظات الهامة من لحظات

التجربة التى يمر بها الإنسان، وكذلك يجتاز حدود الزمان والمكان، إنه ينفذ من خلال حواجز العقيدة، والجنس، والقومية، مثال لذلك، العديد فى جميع المجالات بكل الدلالات الفكرية أو الاجتماعية أو بما يحمله من مضامين.

والمسرح بكل قيمه على عكس جميع مستولداته المذهلات فى القرن العشرين سواء سينما أو تليفزيون، إلا أنه مازال له التأثير فى الحضارة الإنسانية كما فعل طوال ٢٥٠٠ سنة .. لذلك كله فإن المسرح يعتبر أبو الفنون لكونه يجمع بين كل المجالات المختلفة من ألوان المعرفة، ولأنه يجمع بين القصة والشعر والموسيقى والرقص والفن التشكيلى، ومن هنا نستطيع أن نتلمس طريقنا نحو معرفة ماهية المسرح.

فعندما يتجاوز الإنسان حدود السعى والنضال من أجل إشباع الكيان المادة ليتسامى نحو الغذاء الروحى يوجد المسرح.. فما هو ذلك المسرح الذى لابد منه للتمثيل، والموسيقى، والرقص فى منهاج الحياة المنظم.

نشأة المسرح :

كان الإنسان البدائى يرقص بدافع التنفيس عن انفعالاته، وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو الفنون.

ولكون الرقص طقسًا دينيًا فهو يتحدث إلى آلهته بلغة الرقص، ويصل لهم بلغة الرقص ويشكرهم ويثنى عليهم بركاته الراقصة، وكان طبيعيًا أن يخلق الحركة الإيقاعية ليعكس بها ما يخامره من فرح وبهجة، وذلك لأن الطبيعة من حوله كانت تتحرك حركة إيقاعية، ولم تكن هذه الحركات شيئًا مسرحيًا مؤثرًا إلا أن حركته المرسومة كانت تنطوى على نواة المسرحية ونبرة المسرح.

ولا يزال الرقص قائمًا حتى هذه الأيام يؤدى على حده جميع الأغراض التى حددتها له الشعوب البدائية.

وهكذا يكون الرقص هو الأصل الذى تفرعت عنه جميع الفنون سواء أكانت موسيقى أو التعبير الحركى الصامت أو الذى يصدر عنه أصوات فى شكل تراتيل دينية أو نشيدًا حربيًا.. تطورت بعد ذلك إلى الشعر الذى ينظمه الإنسان عن شعور ووعى.

لكــن أيــن يقتــرب الرقــص مــن المســرحية.. ولكــى نجيــب على هذا الســؤال، نــرى إنــه إذا كان يرقص معبرًا برقصــة عــن انتصاره فــى معركــة مبينًا لنا كيــف تلصص حتــى عــدوه ثم قتله وفصل رأســه عن جســمه، كان رقصه شــديد القرب من المســرحية لأنــه خلق لنا بهــذه الحكاية فــن الديالــوج والصــراع، وهاتيــن هما قــوام المســرحية.

وبهذا فقد كان الرقص هو الشكل البدائى البالغ الأهمية فى إظهار الشــعوب لمشاعر المحبة والتقديس نحو الأرواح، وقد تطور هذا الاحتفال الذى يقيمونه ابتغاء الاستزادة من الأطعمة بعد ارتفاع أهمية الزراعة حتى نشأت بعد ذلك الاحتفالات الدينية.

أما الأصول التاريخية لتلك الظاهرة الاجتماعية التى سوف تتكرر بإيقاع يزداد اطرادًا فى الجماعات البشرية، فلا يمكننا أن نبرهــن إلا على أن هــذه الظاهرة الاجتماعية قد نشــأت من الطقس ثم انســلخت عنه شيئًا فشــيئا فى حين حافظت طويلًا على طابعها القدســى، ولم ينشــط الطابع الدينيوى إلا عندمــا تتضاءل الهيمنــة الأيديولوجية للمؤسســات الدينية.

ومع نشأة العرض المسرحى وتواجده فلابد من مكان تُقدم عليه أو فيه، ويصبح هذا المكان هو المسرح فى جميع أشكاله

المختلفة والمتباينة على مر العصور والأزمنة.. كما يصبح لهذا المكان الأثر الكبير فى بنائية العمل المسرحى كما يؤثر فيه العمل المسرحى.

فإذا كانت الكلمة والمؤدى عنصران رئيسيان فى العمل المسرحى فهناك عناصر أخرى لا يمكن التغاضى عنها فى هذا المجال، ومنها البنائية المعمارية للمسرح التى تُقدم عليها هذه العروض، وخشبة المسرح، وما تحوى عليه من تقنيات قديمة وحديثة، ولا شك أن بساطة وروعة مسرح ديونيزيوس فى الهواء الطلق كانت من أسباب عظمته وروعة التراجيديا الإغريقية القديمة، كما أن تطور الحدث المسرحى فى المسرح الحديث كان يساعده إمكانيات متطورة علميًا وتكنولوجيًا من نظم استماع وجودة رؤية وتكنيك متقدم فى خشبة المسرح وغيرها فى المسارح الحديثة.

هذا هو موضوع مادة تاريخ تطور المسارح الذى سأحاول جاهدًا أن أضعه بين أيديكم.. ولكى تتوافر لدينا الصورة المتكاملة للبناء المسرحى فلابد لنا أن نرجع إلى بدء الحضارات الإنسانية المؤرخة.